حول قوله تعالى :

﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾

الإمام الشيخ

عبد الله سراج الدين

رحمه الله تعالى ورضي عنه

هذا البحث مقتبس من كتاب
(سيدنا محمد رسول الله
صلى الله عليه وآله وسلم)
من الصفحة 488 حتى الصفحة 493

للشيخ الإمام
عبد الله سراج الدين الحسيني
بناءً على توجيهات ولده
المهندس الشيخ
محمد محيي الدين سراج الدين
رحمهما الله تعالى ورضي عنهما

ويمكنك تحميل هذه الأبحاث القيّمة
وتحميل جميع كتب الشيخ الإمام
من موقعه الرسمي والوحيد
WWW.SRAJALDEN.COM
قسم: كتب الإمام
تحميل كتب الإمام وتحميل أبحاث مختارة

مدير الموقع:
الشيخ عبد الله محمد محيي الدين سراج الدين

وأما قوله تعالى : ﴿ ووجدك عائلاً فأغنى ﴾ فالمعنى : وجدك ذا عَيْلة ـ أي : إقلال ـ أو ذا عِيالٍ ، فأغناك ربك عمن سواه ، وفتح عليك أبواب الرزق والخير الكثير .

قال الإمام القسطلاني في (المواهب) : قال الحليمي في (شُعَب الإيمان) : من تعظيم النبي ﷺ أن لا يوصفَ بما هو عند الناس من أوصاف الضَّعَة ـ أي : النقص ـ فلا يقال : كان فقيراً . اهـ .

لأنه يوهم النقص ، وأنه فقير قهراً لا اختياراً .

قال القسطلاني : وقد ذكر القاضي عياض في (الشفا) ، ونقله عنه الشيخ تقي الدين السبكي في كتاب : (السيف المسلول) ، أن فقهاء

الأندلس أفتوا بقتل حاتم المتفقِّه الطليطلي وصَلبه ، لاستخفافه بحقِّ النبي ﷺ وتسميته إياه أثناء مناظرته باليتيم ، وزعمه أن زهده ﷺ لم يكن قصداً ، ولو قدر على الطيبات أكلها . اهـ .

قال الشارح الزرقاني : وكلُّ واحدة من ـ هذه ـ الثلاث كافية في القتل بلا استتابة عند مالك رحمه الله تعالى . اهـ .

ونقل القسطلاني ، عن الشيخ تقي الدين السبكي ، أنه كان يقول : لم يكن النبي ﷺ فقيراً من المال قطُّ ولا حاله حال فقير ، بل كان ﷺ أغنى الناس ، فقد كفى أمر دنياه في نفسه وعياله .

وكان الشيخ السبكي رحمه الله يقول في الحديث الذي رواه ابن ماجه والترمذي وغيرهما : « اللهم أحيني مسكيناً ، وتوفَّني مسكيناً ، واحشُرني في زمرة المساكين » :

المراد به استكانة القلب .

قال الزرقاني : أي : تواضع القلب وانكساره إلى الله تعالى ، لا المسكنة التي هي أن لا يجد ما يقع موقعاً من كفايته .

وكان يشدِّد النكير على من يعتقد خلاف ذلك . اهـ .

قال الزرقاني : وهو حسن نفيس . وحاصله أن المنفي سؤال مسكنة ترجع إلى القلة وعدم الكفاية . اهـ .

وقد سبق إلى ذلك الإمام البيهقي حيث قال : إنه ﷺ لم يسأل مسكنة ترجع إلى القلة ، بل إلى الإخبات والتواضع .

قال العلامة الزرقاني : ونحوه قول الغزالي رضي الله عنه :

استعاذتُه ﷺ من الفقر ، لا تنافي المسكنة ، لأن الفقر مشترك بين معنيين :

الأول : الافتقار إلى الله تعالى ، والاعتراف بالذلِّ والمسكنة له .

والثاني : فقر الاضطرار ، وهو فَقْد المال المضطَّر إليه ، كجائعٍ فقد الخبز ، فهذا الذي استعاذ منه ﷺ ، والأول ـ أي : الافتقار إلى الله تعالى ـ هو الذي سأله ﷺ[1] . اهـ .

قال عبد الله : وكيف يكون ﷺ فقيراً فقرَ اضطرارٍ وفقدَ مالٍ ، والحال قد عرض الله تعالى عليه أن يجعل له بطحاء مكة ذهباً فأبى ذلك ؟! وقد خيَّره بين أن يكون نبياً ملِكاً ، أو نبياً عبداً ، فقال : « بل نبياً عبداً » .

فعن أبي أمامة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « عَرَض عليَّ ربي ليجعل لي بطحاءَ مكة ذهباً .

قلت : لا ياربِّ ، ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً ، فإذا جِعتُ تضرَّعت إليك وذكرتك ، وإذا شبعتُ شكرتك وحمدتك » .

رواه الترمذي وقال حديث حسن ، ورواه الإمام أحمد .

وتقدم في بحث تواضعه ﷺ حديث الطبراني بإسناد حسن ، عن ابن عباس وفيه : (فأتاه إسرافيل فقال : إن الله قد سمع ما ذكرتَ فبعثني إليك بمفاتيح خزائن الأرض ، وأمرني أن أعرِض عليك أسيِّرُ معك جبال تِهامة زمرُّداً وياقوتاً ، وذهباً وفضةً ، فإنْ رضيتَ فعلتُ ـ فإنْ

---

(١) انظر جميع تلك النقول في (المواهب وشرحها) للزرقاني .

شئتَ نبياً ملكاً ، وإن شئت نبياً عبداً ، فأومأ إليه جبريل : أن تواضع ، فقال ﷺ : « بل نبياً عبداً » قالها ثلاثاً) .

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « أُتيتُ بمقاليد الدنيا على فرسٍ أبلق ، جاءني به جبريل » رواه أحمد برجال الصحيح ، وصححه ابن حبان .

فقد ترفع رسول الله ﷺ بنفسه عن حُطام الدنيا وأموالها ، وذهبها وفضتها ، ولم يركن إلى نعيمها ، ولا إلى ترف عيشها ، مع تيسُّر ذلك له ، بل كانت همته أشرفَ من ذلك وأسمى ، وأمجدَ وأعلى .

قال عبد الله بن مسعود : نام رسول الله ﷺ على حصير ، فقام وقد أثَّر في جنبه فقلنا : يا رسول الله لو اتخذنا لك وِطاء ـ أي : فراشاً وطيئاً ليِّناً ـ .

فقال ﷺ : « مالي وللدنيا ؟ ما أنا في الدنيا إلا كراكبٍ استظلَّ تحت شجرةٍ ، ثمَّ راح وتركها » .

رواه ابن ماجه والترمذي وقال حسن صحيح .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : (دخلتْ عليَّ امرأة من الأنصار ، فرأت فراش رسول الله ﷺ قطيفة مثنية ، فبعثت إليَّ بفراش حشوه صوف ، فدخل عليَّ رسول الله ﷺ فقال : « ما هذا يا عائشة ؟ » .

قالت : يا رسول الله فلانة الأنصارية ، دخلت فرأت فراشك ، فذهبت فبعثتْ إليَّ بهذا .

فقال ﷺ : « رُدِّيه يا عائشة ، فو الله لو شئتُ لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة ») رواه البيهقي .

ورواه أبو الشيخ بلفظ : (أن امرأة قالت : دخلتُ على عائشة رضي الله عنها فمسِستُ فراش رسول الله ﷺ فإذا هو خشن ، فقلت : يا أم المؤمنين إن عندي فراشاً أحسن من هذا وألين . .) الحديث .

فليس فقره ﷺ فقر اضطرار ، وإنما هو افتقار واختيار[1] .

وليس غناه غنى جمع ومنع واستئثار ، بل غناه ﷺ فياض بالعطاء والجود والإيثار . . فكان يأتيه السائلون ، ويقصده المحتاجون ، فيعطيهم ما يعطيهم ، ثم يأتيه السائلون ، فيعطيهم ما يعطيهم ، ثم يسألونه فيعطيهم ، حتى لا يبقى عنده شيء من المال ، بل ولا من الطعام قوت إنسان ، فيطوي هو ﷺ وأهله وهم جياع ! .

وكان ﷺ يقول لهم : « ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم . . » الحديث ـ كما تقدم في كرمه ﷺ .

ثم إن الله تعالى علَّم نبيه ﷺ أن يقابل تلك النعم السابق ذكرها في الآيات ، بما يليق بها من الحقوق والاعتراف والشكر لله تعالى ، فقال الله تعالى : ﴿ فأما اليتيم فلا تقهر . وأما السائل فلا تنهر . وأما بنعمة ربك فحدِّث ﴾ .

وفي هذه الآيات مع التي قبلها لف ونشر .

---

(١) يعني أن ذلك افتقار إلى الله تعالى واستكانة له ، واختيار لعظيم الأجر ، ورفعة المقام عند الله تعالى .

فأما اليتيم فلا تذلّه ولا تحقره ، بل أكرمه وبِرَّه .

وأما السائل ـ أيْ : سائل بغيته وحاجته ، علماً كان أو مالاً ، فلا تزجره ، ولكن أكرمه بما سأله ، أو رُدَّه بقول حسن جميل .

﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ لأن في التحدث بها شكراً لله تعالى الذي أنعم بها .

ومن ثَم كان رسول الله ﷺ يذكر نعم الله تعالى عليه ، ويتحدث بما أعطاه من المقامات ، وما خصه به من الخصوصيات ، شكراً غير فخر .

فمن ذلك قوله ﷺ : « أنا سيدُ ولد آدم يوم القيامة ولا فخر »

أي : يقول ذلك من باب الشكر لا من باب الكبر .

وقوله ﷺ : « ألا وأنا حبيب الله ولا فخر ، آدم فمن دونه تحت لوائي ولا فخر » .

وقوله ﷺ : « إذا كان يوم القيامة كنت أنا إمامَ النبيين ، وخطيبَهم ، وصاحب شفاعتهم غير فخر » .

إلى ما هنالك مما حدث به ﷺ .

فهذه السورة تدل على وجوهٍ من العنايات الإلهية برسوله ﷺ ، وأنه سبحانه قد تولى رسوله ﷺ وتعهَّده في جميع أطواره ، وسائر أحواله .

* * * *